

البابُ الثالثُ



أو

أدبُ الرحلات

obeikandi.com

## ⑦ المدينة

فردوسى . . يا فردوسى المفقود !

« إن المدينة الفاضلة التى نتمنى لأنفسنا العيش فيها ،  
ينبغى أن تكون محققة لآمالنا ، بشرط أن تتجنب فيها  
ذلك المستحيل الذى لا يطاق »

أرسطو

بعد أن ضحى مع « فاست » بروحه ليفتدى المعرفة ، وبعد أن انتهى  
مع « هكسلى » إلى اليأس من العلم فى هذا العصر ، ثم عاد مع « صمويل  
الكسندر » يؤمن بالزمان والمكان والألوهية ، وبعد أن أبحر إلى ضفاف الكنج  
منبت التصوف لينهل من رادا كريشنان فيلسوف الهند العظيم ، بعد هذا كله  
راح يطوف مثل « يوليسيس » فى المجهول . . يعانى دوار البحر . . ويفتش فى  
حوانيت المدينة وفى أشجار الغابة وفى رمال الصحراء . . عن ذلك الشئ

السعيد . . عن ذلك البلد البعيد . . عن الفردوس المفقود الذى لا وجود له ، والذى نحلمه ونتمناه ، ونعمل جميعاً على إيجاد . . إيجاد ما لا وجود له ! وتلك نقلة طبيعية فى تطور الإنسان الفكرى والروحى ، لأن المشكلة هنا ليست فى خلاصه فردياً ولكن فى خلاصه جماعياً ، أعنى فى خلاصه مع الآخرين أو من أجل الآخرين . وهذا هو الفرق بين رسالة الصوفى ورسالة المفكر ، الصوفى لا يهتم سوى كشف الحقيقة من حيث هى حقيقة تقصد لذاتها بصرف النظر عن أى اعتبار ، وهو يكشفها من أجل خلاص روحه ، والنجاة بنفسه من العالم ومن فى العالم ، ولذلك فهو إذا صعد إلى السموات العلى لا يبغي العودة أبداً ، وهذا على العكس من المفكر أو الفيلسوف الذى يكتشف الحقيقة من أجل خلاص العالم ، ويبحث عن المجهول من أجل توسيع دائرة المعلوم ، وينشد اليقين من أجل التغيير والإصلاح ، فخلاصه خلاص بالكل أو بالمجموع .

ولكنه عندما يضيق بالظروف المحيطة به ، ثم يشعر بالعجز عن تغييرها ، فإنه يسترسل فى أحلامه ليظفر فى دنيا الخيال بما استحال عليه أن يظفر به فى دنيا الواقع ، وليشيد للناس قصوراً فى الهواء على أمل أن تتحقق يوماً فوق تراب الأرض . وهو هنا لا يفكر ليحلم وإنما يحلم ليفكر . . وليتحول الفكر إلى سلوك وممارسة . . إلى فعل وانفعال . وكأنما يحول الشعر إلى واقع دون أن يجمل الواقع ويحوّله إلى شعر . . أليس يكفى الأديب أو المفكر أن يفتح أعين الناس وآذانهم ليروا ما حولهم ويسمعوا . . فينبثق عن شقاء ما يرون وبؤس ما يسمعون كل محاولة للتغيير والإصلاح ؟ أليس تصوير العالم الأفضل بقادر على أن يوقظ غفاة البشر حتى يثوروا مطالبين بالمثل ؟ . أليس فيما صوره كبار الأدباء من « يوتوبيات » أو « مدن فاضلة » تحريضاً على التمرد والثورة ؟

لنتفق إذن على أن « الرحلات » التي قام بها مصطفى محمود في شوارع « المدينة » وبين أشجار « الغابة » وفوق كئبان « الصحراء »، ليست نوعاً من السياحة الخارجية هدفها الفرجة والاستمتاع ، ولا هي نوع من المغامرة السندبادية غرضها الإثارة والإنبهار ، وإنما هي بحث مهموم عن « مدينة فاضلة » أو فردوس مفقود يأخذ من المدينة حضارتها ، ومن الغابة بكارتها ، ومن الصحراء بداوتها ، فتنحقق فيها آمالنا ، دون أن نقع في هوة ذلك « المستحيل » الذي لا يطاق ، وأعنى به الكمال المطلق الذي لا يتسق وطبيعة البشر !

لذلك لم ينجح مصطفى محمود إلى تصوير « يوتوبيا » كتلك التي صورها « توماس مور » مرتحلاً بنا إلى أرض رآها بعين خياله ، أرض عرف شعبها كيف يعيش سعيداً بلا حروب تفتك بأبنائه ، ولا ملكية تشعل في النفوس نيران الجشع ، ولا امتياز لطبقات من المجتمع دون طبقات أخرى ، بل ولا أمراض تنهش في أجساد البشر .

كذلك لم يذهب إلى ما ذهب إليه « صمويل بتلر » في كتابه « آرون » من تصوير شعب سعيد كل السعادة في أرض بالغة الكمال ، لا إرهاق فيها للعمال ، ولا عناء فيها للفلاحين ، ولا استبداد ، أى استبداد من طبقة الحكام .. ولا إلى ما ذهب إليه « وليم موريس » في كتابه « أبناء الأرض » من الحديث عن شعب وصلت به الرفاهية إلى فقدان الرغبة في الملكية الفردية ، والإحساس لدى الجميع بأن الأرض للكل وليست لفئة ، وأن الأساس في الحياة زيادة في الإنتاج وعدالة في التوزيع .

كذلك لم يبشر مصطفى محمود بمثل ما بشر به ه. ج. ويلز في كتابه « يوتوبيا حديثة » بحياة اشتراكية لا تعرف الفوارق بين الطبقات ، ولا التمايز

بين الأفراد ، ولا الحدود بين الأمم ، لأن كل ما تعرفه لغة واحدة ، وحياة عالمية واحدة ، تفيد إلى أقصى حد بمخترعات العلم الحديث . كما لم يحلم بمثل ما حلم به « ألدوس هكسلي » في « الجزيرة » البعيدة عن تناقضات البشر ، وصراع الإيديولوجيات ، وأشباح الحروب العالمية ، لأن كل ما في الجزيرة حب . . . وحرية . . . وحياة . . . وتعاون كامل بين العلماء من أجل تحقيق اشتراكية الأرض !

أقول إن مصطفى محمود لم يفكر في شيء من هذا على الإطلاق ، لأنه يعرف ظروفه وظروف مجتمعه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يستجلب من العوالم التي زارها أفضل ما فيها ليعالج بها أسوأ ما في مجتمعه، لا طمعاً في ثورة ولكن رغبة في إصلاح ، فهو يأخذ من المدينة أفضل ما فيها من مظاهر التمدن والتحضر ، كما يأخذ من الغابة أروع ما فيها من سمات البكارة والطهارة ، ومن الصحراء يستعير روح البداوة والحياة على الفطرة !

ومن هذا كله يكتب روشتة الدواء ، الكفيلة بمعالجة ما في مجتمعه من أدواء ، ومن هنا نبت أسلوبه في « أدب الرحلات »، وهو الأسلوب الذي لا يعتمد على الريبورتاج الصحفي أو الوصف التسجيلي، ولا يعتمد إلى الإبهار اللفظي أو التجمل الفني ، وإنما يتوخى التعريف والتثقيف ، والجمع بين شهادة الرؤية من ناحية ، وشهادة الحواس من ناحية أخرى ، مع مزج الشهادتين بجهود الباحثين الذين استكشفوا هذه العوالم وكشفوا عما فيها من خبايا وأسرار .. فالرغبة في المعرفة هي التي نفخت شرع قاربه الصغير في رحلته إلى البلد البعيد ، والرغبة في المعرفة هي المسئولة عن الشواطئ التي رسا عليها ، والجزر التي لجأ إليها ، بحثاً عن فيروز الشيطان ، وعن اللؤلؤة ذات الأصداف السبعة . ومن هنا « كان فضول المعرفة . . . وعطش العلم . . .

والرغبة في الكشف عن هذا التيه والتعرف عليه . . أقوى من الرغبة في التجميل الفني .

ولكن هذا لا يعنى أن رحلات مصطفى محمود أقرب إلى الدراسة العلمية منها إلى الرواية الفنية ، فثمة توازن رقيق بين مادة العمل وأسلوب التناول ، أو بين علمية المضمون وفنية الشكل العام . وليس هذا عيباً على الإطلاق ، لأن الإفراط في العلمية يحيل العمل إلى دراسة أكاديمية جامدة ، ينقصها النبض ويعوزها الرحيق ، كما أن الغلو في الفنية يخلق شخصيات قصصية ذهنية يطالع فيها القارئ أفكار كاتبها لا أفكارها هي . . . وإنما المزج بين الجانبين هو الكفيل بخلق ذلك اللون من التعبير، الذي تجد فيه « الفكرة » وقد استعارت أسلوباً من القصة . . لتخرج منهما منطبعاً بذلك الصوفي الفنان الذي تنفذ من عينيه نظرة شاملة للحياة ، بعد أن اضطرم قلبه بالمواجع الإنسانية ، وسرت في بدنه قشعريرة حادة ، فبدا كما الواقف على حافة بئر مظلمة ، يطل في مائها العميق الصامت ، يلتقي فيه بالحجارة ، فتدوى في قاع الصمت ، وتقذف في وجهه بالرداذ البارد . . ولكنه يعود من هناك بعد أن يمسح حبات الرذاذ ، ليكشف القناع عن وجه من وجوه الإنسان في علاقته بالمجتمع وبالطبيعة وما وراء الطبيعة !

وهذا هو طابعه في كتابه « أدب الرحلات »، اسمعه يعبر عنه قائلاً :  
 « كنت تواقاً إلى المعرفة . . وكنت أشعر أن قارئى أكثر منى رغبة في التعرف على هذه المجهل . . منه في قضاء لحظة استرخاء لذيدة بين انطباعات فنية ناقصة . . ولهذا فضلت أن يكون كتابى دعوة إلى معرفة وعلم . . أكثر منه دعوة إلى متعة فقط . »

وقد يكون من الطبيعي أن نبدأ رحلات مصطفى محمود بالكلام عن

الغابة ثم الصحراء وأخيراً المدينة ، على اعتبار أن المدينة في سلم التطور الاجتماعي هي التي ظهرت بعد الصحراء ، وبعد الغابة . ولكن المتبع لتطور مصطفى محمود الفكري والروحي ، لا يسعه إلا أن يبدأ بالمدينة التي ذاقها إلى درجة الغثيان ، وتقياًها حتى الثمالة ، ووصفها « بالشئ الخائق اللزج » وراح يطلق على أمراض مثل . . القرحة . . والسكر . . والذبحه . . اسماً واحداً حقيقياً هو « المدينة » ! وكان أمله الوحيد في الشفاء هو « الغابة » !

فما الذي رآه مصطفى محمود في المدينة ، أو كيف كانت رؤيته للمدينة، حتى لقد أصابته بذلك المرض الأليم . . أو الألم المريض !

في ألمانيا رأى « الليالي الحمراء » . . عرايا من كل نوع . . لوحات لا تنسى . . ساعات من العمر هي أجمل ما في العمر . . سينات تتفنن في عرض الجنس . . ومسارح تتفنن في عرض الغزل . . ومشارب للبيرة الرديئة يختلط فيها الجنسان في تبذل . . وأندية للقمار . . وحانات لتبادل الصفقات المريبة ؛ وخيل إليه على حد تعبيره أنه يغبر حدود ألمانيا بدون « باسبورت » .

وصحيح أن هذا الوجه أحد وجوه ألمانيا وليس كل وجوهها ، فعلى الوجه الآخر هناك ألمانيا المصنع حيث كل شيء له معناه وكل شيء له جدواه . . الخردة تتحول إلى أنهار من الحديد السائل ، والحديد يتحول إلى أنابيب وأسباخ والأواح وشرائح ، والهواء يتحول إلى سماد . . والزبالة تتحول إلى ورق . . وباختصار التراب يتحول إلى ذهب ليجعل من ألمانيا عميدة الصناعة في العالم . . صحيح هذا كله . . ولكن يبقى الإنسان . . أين الإنسان في المدينة؟

أو أين إنسان المدينة ؟

إنه كما رآه مصطفى محمود في ألمانيا ذلك الغارق طوال أيام الأسبوع في دخان المصانع ، وأما يوم الأحد فيغرق في دخان السجائر . . في

الكنيسة في الصباح . . وفي المساء في جوف الكبارية أو في أحشاء الطريق . .  
إنه يحيا ذلك المستحيل الذي لا يطاق !

ولكن ذلك الإنسان الذي لا يمكن أن يكون أنا أو أنت أو هو أو هي . .  
أو أى إنسان ، أين يلقاه مصطفى محمود . . إذا كان قد أطبق عليه  
شيطان فاوست وافتقده في ألمانيا أرض جوته العظيم ، فهل يلقاه في إيطاليا . .  
في ذلك الفردوس الذي حدثنا عنه داتى اليجيرى ؟

الواقع أنه لم يجد في روما الإنسان ، وإنما وجد آثاره . . رجع صده . .  
وجده في التماثيل الكثيرة التي تملأ كل شارع وكل ذقاق وكل ميدان . . والتي  
جعلت من روما بلداً قديماً ومتحفاً للذكريات ! إن روما حافظ أمين لتاريخ  
الإنسان أو لتاريخ الفن الرومانى في حضارة الإنسان ، ولكنها ليست حافظاً  
أميناً للإنسان . . فالشوارع ضيقة . . والبيوت كالحمة . . والوجوه شاحبة . .  
والنساء يتكلمن كثيراً . . ويحركن أيديهن كما تفعل نساء بولاق . . أما  
الشحاذون ففي كل مكان !

وهذه هي روما . . عاصمة إيطاليا . . وهذه هي إيطاليا ذاكرة الحضارة . .  
ومتحف التاريخ . . ومقبرة الإنسان !

« كانت المدينة تبدو كمتحف بدون أسوار . . وبدون باب . . في  
كل مكان تجدهم تماثلاً قديماً ونافورة . . وفي كل شبر تجد خرابة أثرية على  
بابها عسكرى ! » .

ولكن هل هذا هو التقدم ؟ . مجرد متاحف ونافورات ؟ ! أليس التقدم  
في هذا العصر هو الصناعة ؟ وأليست الصناعة تعنى الحرية ؟ لأن الآلة  
تحرر الإنسان . . وتوفر له أتمن ما يملك . . الطاقة والوقت والعمر . . وتحرر  
الشعوب بمنحها القوة . .

ويخرج مصطفي محمود من هذه التأملات بفكرة مؤداها أن الحضارة  
لكي تصبح كائناً حياً يمشى على ساقين وليست مجرد تمثال جامد يجثو على  
ركبتين . . الحضارة بهذا المعنى الحيوى أو الحى تقوم على ساقين . . أحدهما  
الكتب والآخر هو المصانع . فى الكتب توجد الغايات . . توجد الآداب  
والعلوم والفنون . . وفى المصانع تصنع الوسائل إلى هذه الغايات . . وكأنما  
مصطفي محمود يحور عبارة ديكارت الشهيرة . «اعطني امتداداً وحركة وأنا  
أصنع لك العالم»، بعبارة أخرى يقول فيها . . اعطني كتاباً ومصنعاً وأنا أصنع  
لك الحضارة . . أصنع الإنسان !

إذن فهل يجد مصطفي محمود ذلك الإنسان فى باريس . . أرض  
الكتاب والمصنع . . ومدينة النور والنيران !

. . . . . كلا . . . . . ولا حتى فى باريس ! فكل شئ فى باريس يعرض بلغة  
الجنس العارى . . إعلانات القمصان . . إعلانات العطور . . الدعايات  
السياسية . . آخر دواء منوم . . حتى طوابع البريد . . تصدر لك مصلحة  
البريد طابعاً عليه رسم عريان !

واهتمام الباريسيين بالعرى ليس منبعه الحرمان الجنسى . . كلا . .  
فالاختلاط فى باريس هو القاعدة . . والعلاقات ميسورة . . وإنما منبعه  
فلسفة باريسية اسمها فلسفة الجسم العارى . . فالجسم العارى لغة كلام . .  
وأسلوب حوار . . وأداة تعبير !

ولكن هل معنى ذلك أن باريس كلها هى ملاهى الستربتيز وحدائق  
الخنافس وفاترينات الأعضاء التناسلية ؟

الواقع لا . . . ! فى باريس عشرات المسارح . . وعشرات المتاحف . .  
وعشرات المكتبات العامة . . وفيها أحدث ما وصلت إليه مبتكرات الأذهان

من فن رفيع..بعيد عن الإغراء . . خالٍ من إسفاف التجارة !  
وعلى ذلك فليس في عرض الجسم العارى إثارة . . ولا في قبلات المترو  
دعارة . . ولا في احضان الطريق تحلل أو انحلال . . وإنما الجسم العارى  
فلسفة . . لها منطقها الطبيعي وتبريرها المشروع . . فهي الوجه الآخر من  
العمل المضمنى . . وهي المكافأة المشروعة بعد الإرهاق الشديد. فإذا كان  
الباريسى يسكر طينة ليلة رأس السنة ، فلأنه يعمل بيديه وأسنانه طول  
العام !

ولكن هل قدر على الإنسان أن يسكر طينة طوال يوم ، ويعمل كالحيوان  
طوال عام ! هل قدر على الإنسان أن يظل مشدوداً بين طرفين كلاهما  
مستحيل . . فقدان الوعي في السكر ليلاً . . وفقدان الروح في العمل  
نهاراً ؟ !

ومهما يكن من فلسفة العرى عند الفرنسيين ، ومن أنها ليست ستاراً ولكنها  
شعار . . شعار الأفيشات العارية . . والأفلام العارية . . ومسارح ييجال  
العارية . . ومهما يكن من أنها لغة يومية عادية، فقدت معناها الجنسي وإن  
احتفظت بشكلها الجنسي فقط . . هل هذا هو الإنسان ؟  
الإنسان وقد تعرى وإن غطى عريه بكلمات جوفاء !

لقد خرج مصطفى محمود من رحلته في باريس بهذا القول الذى شاء  
أن يعتبره قولاً غير مأثور ، والذى يقول : « في القاهرة تجد بين كل مقهى  
ومقهى . . مقهى . . وفي بيروت تجد بين كل كباريه وكباريه . . كباريه ،  
وفي سويسرا تجد بين كل بنك وبنك . . بنك ، أما في باريس فبين كل أفيش  
عار وأفيش عار تجد أفيشاً عارياً » .

وهذا القول غير المأثور له دلالة على إنسان باريس . . أو الإنسان

في باريس . . ذلك الإنسان الذي أصابه الغثيان . . وخنقته حالة الحصار . .  
 وذبحته الأفواه اللامجدية . . وعبثاً يبحث عن الزمن الضائع . . أو عن  
 الأمل . . ذلك الأمل الحقير كما وصفه سارتر !

ترى هل يجد ذلك الأمل حتى ولو كان حقيراً . . على الشاطئ الآخر  
 من بحر المانش ؟ ! وإذا لم يكن قد وجده في مدينة النور ، فهل يرتطم  
 به في مدينة الضباب ؟

هذا هو السؤال الذي حاول مصطفى محمود أن يجد الإجابة عليه في  
 ذلك البلد الرمادي . . في أرض اليباب . . في مدينة الضباب . . في لندن !  
 ولكن لندن تحولت إلى هايد بارك كبيرة . . في كل خطوة تسمع نقاشاً  
 حاداً في السياسة ، ولا يدور في ذهن الناس إلا السياسة ؛ في الصحيفة . .  
 في الكتاب . . في الإذاعة . . في التلفزيون . . في المسرح . . في السينما . .  
 نفس القلق ، ونفس الأسئلة ، والكابوس الجاثم الذي سماه المؤلف « اليمين  
 واليسار » .

وكأن الإنسان الذي تحول في ألمانيا إلى ترس في مصنع ، وفي إيطاليا  
 إلى تمثال في متحف . . وفي فرنسا إلى أفيش عار . . تحول هنا في لندن إلى  
 مقالة في السياسة . . وحتى الذي يتكلم في السياسة لا تكاد تعرف مع من  
 هو أو ضد من ؟ . إنه يتكلم في السياسة لأنه في لندن ، وكأنما قدره أن  
 يتكلم في السياسة لكي يثبت أنه ليس سياسياً ؟ أو أنه سياسى أكثر من  
 اللازم !

أليس هذا هو نموذج المتطرف السياسى الذى تلقاه فى هايد بارك ينتقد  
 كل شيء . . ولا يرضى عن أى شيء . . أى تهاون فى نظره خيانة . . وأى  
 انحراف جريمة تاريخية . . وأى تشاؤم إثم لا يغتفر . . وأى تردد بورجوازية !

« بورجوازية » هذه هي الكلمة التي يحملها على لسانه كل من يتكلم في السياسة ، ويربط نفسه في اتجاه اليسار ! « أنت بورجوازي » شعار يلقي به في وجه كل من يقابله . . يلقيه وعينه مفتوحة كعين الصقر، تلتقط كل ظاهرة بورجوازية من تسريحة الشعر ، إلى ربطة العنق ، إلى الحذاء اللميع ، إلى بذلة السهرة . . لقد تعلم جيداً الدرس الذي تلقاه من بعض السذج ممن يتاجرون بشعار اليسار . . واليسار أكبر بكثير من هذا كله ، لأنه أخطر بكثير من هذا كله . . إن مضمون اليسار وليس شعاره هو القادر على التغيير والتطوير، أما مجرد رفع الشعار فهو الكفيل بإيقاف التنفيذ . . تنفيذ كل ثورة من شأنها إصلاح العالم !

فيا أيها اليسار كم من السخافات ترتكب باسمك !  
ويا أيها اليسار ليس يكفي أن تصرخ بأعلى صوتك قائلاً : « يسقط العالم » بل عليك أن تكمل عبارتك بقولك : « أنا أبنيه أفضل مما هو الآن » !

أجل . . إن كل ما في عالمنا اليوم من ثورات هي مراحل ما قبل الثورة . . إنها الثورات التي يجب أن تثور على نفسها إذا أرادت أن تحقق حرية حقيقية للإنسان، وليس مجرد شعارات فارغة من المضمون . . كما لو كانت على حد تعبير شكسبير ضجيجاً بلا طحن ! أو على حد تعبير إليوت إشارة بلا حركة ، وظل بلا لون !

ولكن إذا كانت لندن تعيش في عالم بلا إنسان . . فهل تفكر في عالم به إله ؟

هذا هو السؤال الآخر الذي راح مصطفى محمود يبحث عن إجابته، في الكنيسة ثم في كتب الدين ثم في الجمعيات الروحية أو جمعيات

## تحضير الأرواح !

ولكنه في هذه المجالات جميعاً لم يجد الله . . ووجد مكانه شيئاً آخر !  
 في الكنيسة وجدهم يقدمون المرطبات ، ويسمحون للفتيان والفتيات بقضاء  
 أوقات مرحة من الرقص على اسطوانات الخنافس ، ويسأل أحد القساوسة  
 عن رسالة الكنيسة في الوقت الحاضر ، فيجيب : « الكنيسة ليست ملجأ  
 عجائز . . لقد تحولت الكنيسة إلى مقبرة بانعزالها عن واقع الحياة . . وإذا  
 استمرت الكنيسة تقدم للشباب مالا يطلبه وما لا يفكر فيه ، فسوف تتحول  
 إلى قبو مهجور ولن يدخلها أحد . إننا نفهم دور الكنيسة خطأ ! دور الكنيسة  
 الحقيقي أن تقدم للشباب احتياجاته » .

انتهى كلام القس ، ولم يوضح تماماً ما هي تلك الاحتياجات ؟ !  
 الكباريه يقدم للشباب احتياجاته أيضاً، فما هو الفارق بين رسالة الكنيسة  
 وبين رسالة الكباريه ؟ هذا هو السؤال . . السؤال الذي لم تجب عليه الكنيسة  
 فهل نجد الإجابة في كتب الدين ؟

ولا حتى في كتب الدين . . فهي مكتبة داتكتز الشهيرة التي تحتوى  
 كل ما يخطر على البال من كتب . . كتب في الأديان . . وفي الأرواح . .  
 وفي التنجيم . . وفي السحر . . وفي كتابة الأحجية . . وحتى « الشبشة » نجد فيها  
 كتباً تبحث في أصولها وقواعدها وأساليبها وتاريخها منذ القدم حتى الوقت  
 الحاضر . ولكن هل تجدى هذه الكتب ؟ وهل تفيد في حل مشكلات العصر ؟  
 أو مشكلاتنا في هذا العصر ؟ يسأل مصطفى محمود صاحب المكتبة العجوز  
 فيجيبه بابتسامة ساخرة : « مما يؤسف له يا سيدى إني متخصص في بيع  
 الكلام الفارغ . . ورأى الحقيقي أن كل ما في هذه المكتبة كلام فارغ يجب  
 أن يلقى في صندوق القمامة » .

لقد اختفى الله من أروقة الكنيسة ومن فوق أرفف الكتب ، فهل يجده السائح في الجمعيات الروحية ؟

٣٣ ميدان بلجراف - مارلبورن . . يا له من عنوان عجيب ، إنه عنوان الجمعية الروحية لتحضير الأرواح . . وهي جمعية ذائعة الصيت ، تحمّس لها الكثيرون من ذوى الأسماء اللامعة في الأدب والعلم والفلسفة ، حتى خلدت أسماؤهم على قاعات الجمعية . . قاعة سيركونان دويل . . الأديب الشهير صاحب كتب شرلوك هولمز ، سير أوليفر لودج العالم المعروف مخترع الصمام الإلكتروني . .

في هذه الجمعية حضر المؤلف عرضاً لتحضير الأرواح ، قامت به سيدة عجوز تبادلت حواراً مع سيدة أخرى فقدت ابنها في الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحوار كشف عن دجل ضخّم ، وادعاءات لا أساس لها من الصحة ولا آثار لها في الواقع . . إن كل رواد الجمعية عجائز ، أغلبهم من النساء العجائزهن في الغالب ضحايا المستيريا والخوف من الموت ، ولكل واجدة ابن فقدته في الحرب وتتمنى أن تسمع صوته ، وهي بالتالي مهياة لأن تصدق كل ما يقال . . وما يقال لا أساس له من الصحة ولا آثار له في الواقع . وهذا معناه أن الجمعية فشلت في أن تخلق إيماناً حقيقياً، أو تجتذب إليها عقلاً شاباً واحداً .

والدلالة الأخيرة على هذا كله هو انتصار الحضارة المادية ، وانزواء الحياة الروحية، حتى لم يعد يكفي لإعادة الإيمان إقامة الكنائس ولا إصدار الكتب الدينية ولاتأسيس الجمعيات الروحية، فهل يستدعى الأمر نزول المسيح من جديد ليمشي على الماء أمام مائة مليون أوربي ليعود إليهم الإيمان مرة أخرى !؟

ربما . . . ولكن من يدرينا أن المسيح لو عاد من جديد ، لن تتسابق  
ملايين الأيدي لصلبه من جديد ؟ !

ولكن إذا كان الله والإنسان لم يعد لهما وجود في المدينة الأوربية ،  
فهل نجدهما في المدينة العربية ؟

وعندما نختار مثلاً للمدينة من بين البلاد العربية . . لا نجد أمامنا  
سوى بيروت . . فهنا المدينة في صورتها المثلى ، أو هنا المثل الصارخ للمدينة . .  
فإذا كنا نجد المدن في سائر العواصم العربية . . في القاهرة . . في دمشق . .  
في بغداد . . في الرباط . . فإننا نجد المدينة في بيروت . . فكيف رأى  
أدينا السائح أو سائحنا الأديب هذه المدينة . . بيروت ؟

رآها وجهاً آخر لباريس ، أو كما سماها « باريس الشرق » ؛ ولكن  
إذا كانت باريس كما يقال عنها مدينة النور . . النور الذى ينبثق من  
العلم ، فإن بيروت هي الأخرى مدينة النور ، ولكنه النور الذى ينطلق  
من الإعلان . . في بيروت هي بلد الكباريه . في كل شارع كباريه . .  
كباريات تحت الأرض . . وفوق الأرض . . وفي الخنادق . . وفي الكهوف . .  
وتسأل لماذا انتعش فن الكباريه بالذات في بيروت ؟ ويأتيك الجواب :

ليس في لبنان بئر بترول واحد ، ولا منجم حديد واحد ، واللبناني  
لا يملك سوى منظر جميل، ورقعة شاعرية على البحر . . البئر الوحيدة إذن  
هي جيوب الزوار ، والوسيلة الوحيدة هي نزحها في رشاقة، وتلك هي خطة  
التنمية ؛ ولكي تؤتي خطة التنمية أفضل ثمارها ، لا بد أن تكون الصلة حسنة  
بالجميع . . والترحيب على أشده لأى وارد . . وهذا معناه أن يصبح الإنسان  
البيروتي هو كل إنسان ولا إنسان !

إنه ليس ضد أحد ولكنه مع الجميع ؛ الكل سواء أمام الليرة اللبنانية . .

والليرة اللبنانية هي ورقة التوت التي تستر عورات الجميع . . وبدون ورقة التوت يفتضح أمر الإنسان في بيروت ، ولا يهم من أى شجرة تقطف هذه الورقة ، المهم أن تكون معك أوراق التوت ! تكرم سيدى . . أهلين بيك وسهلين . . يعطيك العافية . . ساوى حالك . . عيوني . . هذا هو قاموس الإنسان البيروتى . . إنها لغة القومسيونجى الذى يبيع كل شىء . . لكل إنسان !

وقد تصطدم بالثققف اللبناني فتجده ساخطاً متبرماً ، يتكلم فى أسى لضياح المبادئ.. وفى حرارة لفقدان الاتجاه . . وفى شوق إلى أيديولوجية واضحة . . ولكنك سرعان ما تكتشف أنه حديث استهلاكي . . حديث لمجرد الترف العقلى . . استثمار وقى على قارعة الطريق . . أما ساعة الجلد . . فتجده يصرخ بأعلى صوته : « صرماية على كل المبادئ . . مالنا نحن ومالها المعركة . . نحن هون بنحب الجميع » .

وهنا تنطوى مصايح الثقافة لتضاء إعلانات الكباريه . . فالكباريه أسهل وأسرع وسيلة لإقامة فاترينات جذابة للإمتاع . . أما السينما فتحتاح إلى مؤلف قصة وكاتب سيناريو ومخرج وممثل ومدير إنتاج وحكاية طويلة معرضة بعد هذا كله للخسارة ، وكذلك المسرح يحتاج إلى جهد أكبر وهو غير مضمون الإيراد ، والفن الإذاعى والفن التليفزيونى ليسا أسعد حالاً من فنى السينما والمسرح . . فالإذاعة والتليفزيون فى بيروت هى قنوات إعلان أولاً وقبل كل شىء . . أما الكتاب اللبناني فهو بضاعة تصدر ولا تستورد ، تطبع ولا تقرأ ، وهو تجارة استثمار لعقول الآخرين وليس تجارة استهلاك ثقافى بالنسبة للمواطن اللبناني . . .

وهذا معناه فى النهاية أن الأيديولوجية الرائجة فى بيروت هى الحرية

الفردية بلا حدود..والطموح المادى والشخصى بلا ضوابط . . والثراء بسرعة  
 وبأى طريق ! إن الإنسان البيروتى إنسان ذو بعد واحد . . بل إنسان ذو  
 بعد وحيد . . أن ينجح . . وينجح . . وينجح . . كائناً ما كان مضمون هذا  
 النجاح !

النجاح . . وليسقط العالم أو يهلك بالطاعون ! النجاح . . ولو فى  
 ليل بيروت الأحمر الذى تنزف فيه ملايين الليرات ! النجاح . . ولو عن  
 طريق اللامبدئية التى تدر كل فئات العملات من كل بلاد العالم . .  
 تلك هى بيروت . . مدينة بلا قلب . . وذلك هو المواطن البيروتى . .  
 إنسان مات فى جيبه الله !

ولكن هل يمكن أن تعيش بيروت زوجة للكل ؟ . هل يمكن أن تظل  
 لقيطة بلا أب ولا أم ؟  
 هل يمكن طلاقها من عروبتها لكى تنضم إلى العالم . . وتصبح مدينة  
 عالمية.ويصبح مواطنها إنساناً عالمياً ؟

تلك هى الأزمة البيروتية أو الأزمة اللبنانية بوجه عام ، وإذا كانت  
 هذه الأزمة هى السبب فى هذه المتناقضات التى تعيش عليها بيروت ، ويفيد  
 منها الإنسان البيروتى ، فهى تناقضات لن تدوم طويلاً . . لن تدوم لأن  
 مصير الدول العربية إلى وحدة حتمية ، ومصير الرأسمالية العالمية إلى زوال . .  
 فالرأسمالية العالمية سوقها وغداؤها الاستعمار، وإذا كان الاستعمار لا يزال فى  
 أماكن كثيرة ، فلأن الاشتراكية تزحف لتحتل كرسياً بعد كرسى . ويومها  
 تشعر بيروت أنها خسرت الاثنين . . عروبتها وعالميتها . . فيا بيروت الوحدة  
 " . . . والعربية قبل العالمية .. وأنت حرة !

التي يطلقها مصطفى محمود فى وجه بيروت ، يدير

ظهره للمدينة . . أى مدينة . . وكل مدينة . . لقد ظل طوال رحلته فى مدن العالم يبحث عن تلك المدينة الفاضلة التى يتنى أن يعيش فيها . . والتى ينبغى أن تكون محففة لآماله وأشواقه ، والتى لم يضع لها سوى شرط واحد . . أن يتجنب فيها ذلك المستحيل الذى لا يطاق . .

لكن هذا الشرط لم يتحقق فى واحدة من المدن التى زارها ، بل كان هذا الشرط يطالعه فى كل مكان . . فى النواقد والطرق . . فى البيوت والمحلات . . فى المسارح ودور السينما فى دور اللهى . . الغالى والرخيص . . بل فى الكنائس والمتاحف وكتب الدين وجمعيات تحضير الأرواح . . لقد كان المستحيل الذى لا يطاق يطبق عليه من كل جانب . . ذلك

المستحيل هو موت الإله وضباع الإنسان !  
فإذا كانت المدينة هى المسئلة عن ذلك ! ترى أين يرى الله ؟ وأين يجد الإنسان ؟

## ٨ الغابة

سلام على الأكوخ ! حرب على القصور !

« كل شيء كما صنعه يد الطبيعة حسن ، ولكنه يفسد بين يدي الانسان . عندما يلزم أرضاً بإنماء غلات أرض أخرى . وشجرة يحمل ثمار شجرة أخرى . . . وعندما يخلط بين الأقاليم والعناصر والفصول . . . » /

جان جاك روسو

« كلام جميل . . . ولكن هل هو كلام صحيح ؟ »

كان مصطفى محمود يفكر في هذه الفلسفة حول حكمة « الطبيعة » طوال رحلته في « الغابة » : « هل الطبيعة تدبر كل شيء كأحسن ما يكون التسدير ، وليس في الإمكان أبدع مما كان . . . وأى تدخل من الإنسان في الطبيعة إفساد لحكمتها ؟ » .

إنه إذا كانت الغابة هي سبيل الخلاص من المدينة ، فهل تكون سبيل الخلاص بالنسبة إلى الإنسان ؟

وهل الخلاص بالغابة استنقاذ للممكن من مخالف المستحيل ؟ فإذا كان الله قد مات في المدينة ، وفي المدينة ضاع الإنسان ، فهل تصنع الغابة من أشجارها عرشاً للرحمن ، ومن أعشابها سندساً لبني البشر؟

صحيح أن المدينة شيء خائق لزج . . مرض مزمن له ألف اسم واسم . . اللغة أصبحت رخيصة مبتذلة ، الصداقة غدت حرفة . . العاطفة تحولت إلى طريقة للوصول ، البراءة ماتت ، قتلها داء اسمه المدينة . . داء اصطناع كل شيء . . اصطناع الكلام . . اصطناع السلوك . . اصطناع التهذب ؛ صحيح هذا كله . . وصحيح غيره ؛ ولكن هل يمكن للإنسان أن يتخذ موقفاً فردياً من المدينة ؟ أليس يعنى هذا الموقف رفضاً للحضارة التي صنعتها الجموع البشرية على امتداد العصور ؟

بالطبع هناك مواقف فردية حيال جميع القضايا والمشكلات ، مواقف يستطيع الفرد فيها أن يرفض الحضارة ، ويهرب إلى الغابة أو إلى الصحراء ، ولكنه لن يغير بموقفه هذا شيئاً أى شيء . . لا من الآلام النفسية ولا من الأوجاع العقلية التي طردته من المدينة إلى الغابة أو إلى الصحراء !

فالمدينة هي التطور الاجتماعي ، وربما كانت أعلى مراحل هذا التطور ؛ هي ثمرة جهدى وجهدك وجهود الآخرين ؛ وهي ليست « ظاهرة » تعرض وتزول، ولكنها « مظهر » من مظاهر التحضر البشرى ، وهي من هذه الزاوية قادرة على أن تصحح مسارها باستمرار ، فأوجاع المدينة تعالجها المدينة ، وآلام التحضر لا تداويها إلا الحضارة !

وعلى ذلك فعلاج المدينة اللزجة التي تنام بالأقراص ، لا يكون بزيادة

عدد الأقراس ، وإلا انتحرت المدينة، ولا بالإقلال منها وإلا أصيبت بالدوار ، ولكنه يتجاوز المدينة نفسها لنفسها، والعلاء على ذاتها باستمرار !

وهذا معناه بعبارة أخرى تحويل المدينة اللزجة إلى مجتمع إنساني أكثر نظافة ، وأكثر راحة لأعصاب البشر . والإنسان المتحضر قادر على فهم طبيعة الحضارة ، مؤمن بقدرة الإنسان على تغيير العلاقات دون الإنسانية، إلى علاقات أوسع أفقاً وأرحب مدى .

لنتفق إذن على أن الطريق إلى الغاية ، ليس هو الطريق الذي يدير فيه مصطفى محمود ظهره للمدينة وحياة المدينة ، بمقدار ما هو الطريق الذي قد يتأدى منه إلى رؤية الله ومقابلة الإنسان . . الله على الطبيعة ، والإنسان على الفطرة . . لذلك نراه يعود إلى سؤاله عن حكمة الطبيعة، وهل تدبر كل شيء كأحسن ما يكون التدبير ، وليس في الإمكان أبدع مما كان وأن أى تدخل من الإنسان في الطبيعة إفساد لحكمة الطبيعة ؟ يعود إلى هذا يعود إلى هذا السؤال بإجابة تكاد تبدو قاطعة :

« كلام فارغ طبعاً . . فالطبيعة تخطئ كما يخطئ الإنسان . . وخطاياها أفدح . . وحيوانات الديناصور التي انقرضت عن آخرها . . ونباتات السرخس التي لم يعد لها وجود . . كلها أخطاء سجلتها الطبيعة على نفسها في حفرياتها وآثارها . . والمجموعات الكوكبية التي تنفجر وتبدد في أرجاء الكون بين وقت وآخر . . دليل آخر على أن الطبيعة ليست لها خطة محكمة » .

ولكن أليست تجرنا هذه الإجابة إلى التساؤل عن الغاية في الطبيعة ، أو بالأحرى عن الغائية في الحياة ؟ إنه إذا كانت الطبيعة تنطوي على بعض ظواهر الفوضى ، وكانت الحياة فيها بعض مظاهر العشوائية ؛ فهل يعنى هذا انتفاء الغاية أو انعدام الغائية ؟ ألا يجدر بنا ونحن نعري الطبيعة من

وشاحها والحياة من سترتها بأن نقول إن ثمة غائبة في الكون ؛ حتى ولو كانت غائبة بلا غاية ؟

وإلا فكيف نفسر كل ظواهر الجمال التي تنطوي عليها الحياة في بساطتها وبكارتها وشكلها البدائي الأول ؟ كيف نفسر كل مظاهر الخصب والنماء التي تتفجر بها الحياة في مظهرها البكر أو الإبداعى الأول ؟ كيف نفسر تلك الحقيقة الطبيعية الحية التي اسمها . . الغابة ؟ !

إن الغابة ليست شكلاً يوصف ، وليست صورة تشاهد ، وإنما هي على حد تعبير مصطفى محمود : « إحساس . . مذاق . . طعم . . رجفة في القلب » فالغابة في تقديره لا يمكن أن « توصف » لأن أى وصف يزرى بجلاها . . أشجارها لا تشبه ما نرى من أشجار في الشوارع والحدائق ، أشجارها سوامق فيها عنفوان وشموخ وزعامة ، أزهارها محتقنة دموية ، وأوراقها ريانة ، وأمطارها عاتية مكتسحة ، وضبابها كثيف متراكم جياش ، برق يلمع ، ورعد يزأر ، ثم يعود الهدوء ويخف السيل . . ثم ينقطع وتلمع الشمس على هامات الشجر . . وتتلاًلاً فصوص الماس . .

إنها الغابة . . وهي أيضاً الغاية ، أو هي على الأقل الغائبة بلا غاية ! وهي ليست شيئاً تمتلكه وإنما هي إحساس يمتلكك - تماماً كما تملك أدينا الرحالة فراح يقول : « وقد شعرت بتلك الرجفة الغامضة وأنا أتنتقل بين الشجر ، وأتسمع ذلك الخرير الذي ينبعث من مئات الجداول والشلالات الصغيرة التي يعربد فيها الماء والثلج منحدرًا من القمم »

إنها البداية . . من الغابة تكون . . لأنه من الغابة نبعث الحياة ! ورحلة مصطفى محمود ليست رحلة خارجية في « أحراش الغابة » هدفها الرصد والتسجيل ، وغايتها الفرجة والمشاهدة ، شأن أى رحلة تقليدية

من تلك التي عهدناها في أدب الرحلات ، وعلى سبيل المثال الرحالة الصحفي جون جنتر في كتابه الشهير « داخل أفريقيا » ؛ الذي حاول فيه معالجة هذا الكل الشاسع الملتهب المسمى أفريقيا ، أو « القارة المظلمة التي بدأت تضيء » كما اختار أن يسميها في الفصل الأول من الكتاب .

ومن هنا حفل الكتاب بأخلاط من المعلومات والبيانات والتفصيلات عن أفريقيا . . بلادها وسكانها وقبائلها وحيوانها وما فوق أرضها وما في باطن أرضها ، فكان أقرب إلى الرحلة العلمية منه إلى أى شيء آخر ؛ الرحلة التي يخرج منها القارئ بالفكرة والمعلومة . . بالإحصائية والتاريخ . . بالرأى ووجهة النظر . . أكثر مما يخرج برجفة القلب ، وهزة الضمير، وانتفاضة الوجدان !

وقد نجد في الكتاب عوامل الإثارة والتشويق بل والاستفزاز الذي يقتضيه أدب الرحلات . وخاصة في تلك القارة التي لم تعد مظلمة تماماً ، بل هي الآن تومض بالنور الحى ، لأنها في الحقيقة أشبه بالرغوة الهائلة التي انفجرت . ولم يكن انفجارها سياسياً واقتصادياً فقط ، بل كان انفجاراً اجتماعياً وثقافياً ودينياً كذلك !

وهذا ما عبر عنه الكاتب الإفريقي المعاصر ، كان ثمبا ، تعبيراً قويا رائعاً ، قال فيه :

« ها هي ذى إفريقيا تتحدث إلى أوروبا وإلى العالم . . ها هي ذى أحلامنا عن عظام الأمور التي لم يزل علينا أن نحققها . . إن الإفريقيين قد شرعوا في خلق لغة خاصة بهم . . تتألف من كلمات تقفز إلى الوراة وإلى الأمام ، على أقدام قوية وثابتة ، لقد بدأت حضارة جديدة تبرز في هذه الناحية أو تلك من القارة . . ثقافة إفريقية جديدة » !

أجل . . ثقافة إفريقية جديدة . . وعبرة كتلك التي قالها الشاعر

النيجيري . . دنيس أوزادهي : « لا تبق على تقاليدى ، وكأنها من طرائف التحف ، إرضاء لذوق طائفة من بيض المؤرخين »  
 عبارة كهذه ، لم يعاد لها مضمون ، لأن الشعور الجديد بالثقة الذى أخذ يغمر قلوب الإفريقيين ، قد جعلهم لا يخشون النظر إلى ماضيهم ، وخاصة بعد أن تبين لهم ، بفضل الدراسات الإثنولوجية الحديثة ، أن هذا الماضى ، لم يكن عقيماً ولا مجدياً ، وإنما كان حافلاً بالكثير مما يستحق الفخر والاعتزاز .

لقد وثبت القارة السوداء من البحر الأسود . إلى المدينة البيضاء ، وأصبحت الآن تعرض صورة للملايين البشر الذين تحولوا فى سواد ليلة من حياة القبيلة البدائية، إلى العضوية العاملة فى المجتمع الحديث !  
 والذى ترتب على ذلك هو توزع أهلها بين مختلف درجات التطور السياسى ، ففيها بلاد مستقلة استقلالاً تاماً ، وفيها بلاد مستقلة استقلالاً ذاتياً ، وفيها بلاد شبه مستقلة ، وبلاد تحت الوصاية ، وبلاد متنازع عليها ، وفيها محميات ومستعمرات ، وأراض واسعة لا يعرف أهلها كيف يحكمون وما زالوا يحيون حياة القبيلة أو الإقطاع .

فإذا أضفنا إلى هذه الأبعاد الهامة أهمية افريقيا بالنسبة للعالم الغربى ، أهميتها لا لموقعها الاستراتيجى فقط ، ولا لغناها الفاحش فحسب ، بل لأنها آخر حدود الغرب ، ولأن السؤال الذى يطرح نفسه على العالم الغربى باستمرار هو : « لقد ضاع معظم آسيا فهل تبقى افريقيا ؟ »

أدركنا على الفور أن افريقيا أشبه ما تكون بالمعمل الحى ، المعمل الحى سواء بالنسبة للعالم السياسى أو بالنسبة للمشتغلين بعلم الأجناس ، فهم جميعاً يتساءلون :

هل انتهى عهد الرجل الأبيض في أفريقيا ؟

هل الأفريقيون قادرون على حكم أنفسهم بأنفسهم ؟

وإذا كان الاستعمار قد مات ، فما الذى سيخلفه ؟

هل تستطيع الشيوعية اكتساح أفريقيا ، كما اكتسحت معظم آسيا ؟

هل تستطيع القوى المستعمرة حماية مواقعها بالتغيير والإصلاح ؟

من هنا . . . ومن هناك . . . كانت رحلة الصحفي الأمريكى جون جنتر فى

« داخل أفريقيا » رحلة من نوع آخر ، رحلة تختلف فى الكيفية والنوعية عن

تلك الرحلة التى قام بها أدينا الصحفي مصطفى محمود ؛ فرحلة جون جنتر

رحلة إلى الخارج . . . إلى كنوز الغابة . . . أما رحلة مصطفى محمود فهى رحلة

فى الداخل . . . فى ضمير الغابة ؛ فإذا كان الأول يحاول استكشاف قارة

الإنسان الأسود ، فالثانى يحاول استكناه إنسان القارة السوداء !

وإنسان هذه الغابة هو عند مصطفى محمود الإنسان على الحقيقة . . .

الإنسان عارياً من أدران المدينة . وأغطية الحضارة . . . الإنسان الذى يعانق

صباح الخلق الأول كما يعانق فجر مسائه الأخير دون زيف أو مغالطة . . .

دون سرقة أو استغلال . . . دون كذب أو نفاق . . . دون كل ما هو دون

الإنسانى أو تحت البشرى . . . ذلك لأن إنسان الغابة . . . إنسان فى أخلاقه

صلابة الإيمان بالأسلاف . . . وفى سلوكه أصالة التناغم مع الطبيعة . فهو

على حد تعبير الشاعر الكبير ليوبولد سنجور : « متفتح لكل الأشياء . . .

مستجيب لنداء الطبيعة . . . بشرط أن تكون أمينة وصادقة وعادلة ! فالإنسان

الذى لا يملك أن يغير جلده ، فلا أقل من أن يمنحه البريق والحياة » .

الإيمان بالأسلاف والتناغم مع الطبيعة . . . هاتان هما السماتان الرئيسيتان

فى حياة الإنسان الإفريقى . . . إنسان الغابة . . . أما الأسلاف فهم رمز الفحولة

والبطولة والعلم بأسرار الكون ، وأما الطبيعة فهي رمز القوة والخير والحياة باعتبارها رمزاً للأوثنة . . ومن الزواج بين هذين العنصرين تقوم كل حياة . . وينشأ كل وجود !

فالتبيعة إذن عند إنسان الغابة ليست مجرد « اسم » وإنما هي إن صح التعبير « فعل » أى وجود ديناميكي متحرك ، وشبكة من القوى الفعالة والبالغة التأثير ؛ وكذلك « الأسلاف » ليسوا مجرد « موتى » وإنما هم « أحياء » بل أشد حياة من الأحياء ، وعلى ذلك لا تكون عبادة الأسلاف مجرد تقديس لقوم عاشوا في غابر الأزمان ، وإنما هي إقرار بسيطرة الوجود الخفى على الوجود الظاهر للعيان .

ومن هنا كانت « الأقنعة » وجهاً آخر للإنسان ، أو هي وجهه الحقيقي الذى يطالع به الأسلاف ، إذ لا بد « للتخاطب » مع الأسلاف من أن يطالعها الإنسان بوجهه الحق ، على العكس من الوجه الطبيعي الذى « يتناغم » به مع الطبيعة !

ومن هنا أيضاً كان استخدام الأقنعة ضرورة لازمة لإيراز المعنى الدرامى من خلال لغة راسخة لمعنى كل قناع ، فأقنعة المناسبات القومية ، غير أقنعة الأعياد ، غير أقنعة القتال أو الإعداد للحرب ، ما دام القناع هو صوت الجماعة ، ومن خلال القناع يستطيع الإنسان أن يخاطب الأسلاف ، وأن يستخبرهم فى دينه ودينه .

والرقصات مثل الأقنعة لها أيضاً دلالتها الرمزية سواء فى التخاطب مع الأسلاف أو فى التناغم مع الطبيعة ، فهي تتخذ أشكالاً متنوعة ، وتثير انفعالات بعينها يحددها التراث الثقافى لدى الجماعة ، سواء فى مواقف القتال والحرب ، أو فى الأعياد والاحتفالات القومية ، أو فى المناسبات التى

تستوجب طرد الأرواح الشريرة، والعودة إلى مناجاة الأسلاف !

هذه الحياة . . على حقيقتها وبساطتها . . على طهارتها وبكارتها . . هي التي وجدها مصطفى محمود عند القبائل البدائية التي تسكن أدغال تنجانيقا وكينيا . . عند الماساي والماكامبا . . وعند الماوا . . ماو . . وهي شيء آخر بطبيعة الحال عن حياة طرزان . . وروبنسون كروزو . . والسندباد ، إنها الغابة الحقيقية . . الغابة بحق . . الغابة التي تختلف اختلافاً كاملاً عن غابة الشعراء ، وهواة المغامرات ، ومحترفي الصيد ، ومخرجي الأفلام السينمائية ابتداءً من كلود ليلوش وانتهاء بحسن الصيفي !

إن الغابة بالنسبة للصيد أو الشاعر أو المخرج السينمائي فسحة يوم ، تغيير جو . . ولكنها بالنسبة لمن يعيش فيها . . قدر . . ومصير . . ومجموعة من المؤثرات تعمل على تشكيل حياته وتفكيره كما تعمل يد النحات في الصلصال . إنها على حد تعبير مصطفى محمود : « مناخ اجتماعي وليست خطوط طول وعرض » .

وعلى ذلك فهو يرى أن « أقصر طريق يوصل إلى الغابة هو الطريق الذي يسير عبر الخط الإنساني . لا الخط الحديدي . . الخط الذي يقف بالقبائل والمجموعات البشرية . . لا بالمراكز والمحطات . . فالمحطات الحقيقية هي الحقب التاريخية . . ونقط انتقال الإنسان من مرحلة إلى مرحلة » .

ومن هنا كانت نقطة انطلاق مصطفى محمود . . نقطة انطلاقه عبر أحراش الغابة بحثاً عن أحشاء الإنسان . . عن روحه الدفين . . عن ضميره الحي . . عن الإنسان الإنساني ، أو الإنسان بما هو إنسان !

وكان لزاماً عليه لكي يلتقي بهذا الإنسان أن يخلع ثوب السائح ، وأن يتعري من أغطية المدينة، وأن يتحرر من كل ما من شأنه أن يهول بينه وبين

لقاء الإنسان . . الإنسان بكل بساطته و بكارته وإحساسه الطبيعي الأول .  
 هذا الإنسان هو الذى غنى معه مصطفى محمود ورقص ، غنى فى نشوة ،  
 وضحك فى إشراق ، وارتدى على صدر الطبيعة مرتداً إلى ما فى داخله من  
 إنسان :

« طفولة الإنسانية الحلوة ، كنت أراها حولى ، الطفولة بكل براءتها ،  
 وخطاياها ، ومرحها ، وانطلاقها النشوان كانت ترقص على نقرات أشجار  
 التيك المجوفة . . لا يسترها شيء . . لم يكن عند واحد من هؤلاء الأطفال  
 الكبار شيء يخيفه . . كل منهم كان يغنى من أحشائه . . وكان يعطى نفسه  
 كلها للحظة التى يعيشها . لا افتعال . . لا خجل . . لا تمثيل . . لا غرض  
 من وراء أى شيء . . وإنما الكل يرقص لأنه فرحان . . لأنه يعيش بجماع قلبه » .

وكان من الطبيعي بالنسبة لمصطفى محمود . . هذا الذى يحاول أن  
 يتجنب المستحيل الذى لا يطاق . . والذى أطبق عليه فى شوارع المدينة . .  
 يحاصره ويتحداه ويناصبه العداء . . بعد أن أعلن موت الله . . وضياح  
 الإنسان ، كان من الطبيعي أن يعانق هذا الإنسان، وأن يشاركه أعياد الطبيعة  
 وأفراح الحياة ، وكأنما يتمسك بتلابيب الإنسان إلى أن يعود فىرى الله :  
 « شعرت بالدماء تدب فى أوصالى الباردة . . وشعرت بطفولتى الدفينة  
 تحت ركام ثلاثين عاماً من كابوس المدينة . . تظل برأسها . . وتمطأ . .  
 وتنبثق من تحت الردم . . وتسرى فى جسدى كسيال من الكهرباء . .  
 وشعرت بنفسى أقوم . . وأهتز . . وأرقص . . كما لم أرقص فى حياتى . .  
 كطفل مولود تهدهده أمه . . الطبيعة » .

وقد يتراءى للبعض أن يصف هذا كله « بالهمجية » ، ولكن هل المدينة  
 علاج لهذه الهمجية ، وهل تخلصت المدينة من همجيتها حتى تسخر من

همجية الغابة ، ثم من قال إنها همجية ، إنها عند مصطفى محمود الحياة على الطاهرة والبكارة ، الحياة بعيدة عن كل معاني السلطة والتسلط ، الحكم والتحكم ، الابتذال والاستغلال . . « جد هذا الزنجي العجوز الذى يهز كتفيه أكل ذراعاً بشرية فى الأيام الخوالى . . ربما . . ولكن ماذا فعلنا نحن بالقبلة الذرية فى عصر النور والمعرفة والحضارة . . كم أكلت هذه القبلة من أذرع وسيقان ، وكم هشت ، وكم نهشت من وجوه جميلة فى هير وشيا » .

وقد يترأى للبعض الآخر أن يصف هؤلاء البشر بأنهم « وحوش . . هجج . . برابرة . . يؤمنون بالخرافات » وعلى هؤلاء يرد مصطفى محمود : « وبماذا تؤمن نحن ؟ » .

ويستطرد فى هذا الرده شارحاً الفارق الإنسانى وليس الحضارى بين ناس الغابة وناس المدينة ، بين الحياة هنا والحياة هناك : « هنا الناس أرحم . . وأكثر إنسانية من ناس المدينة . . وهنا حضن الطبيعة أكثر دفئاً . . وأكثر خصباً . . وصدر الطبيعة هنا رطيب . . مبلل بالأمطار . . مخضل بالندى . . ضرعه لا يجف . . ولا ينضب منه الحليب .

كم تمنيت أن أستلقى على هذا الصدر وأنام » .

وإمعاناً فى الاستطراد ، وتغليب حياة الإنسان حتى ولو فى حضن الغابة ، على الحياة اللإنسانية ولو فوق مائدة المدينة . يقول مصطفى محمود : « لماذا يهدنا التعب هكذا فى المدن . . كل المدن . . فى القاهرة . . فى لندن . . فى موسكو . . فى باريس . . فى كل المدن . . الناس مهمومون شاحبون ، يسرون بخطى ثقيلات . . كأنهم على سفر شاق لا ينتهى . . » .

ويتساءل مصطفى محمود : « لماذا لا نعرف مثل هذا المرح الطليق عندنا في المدن ؟ لماذا لا نرقص هكذا من أحشائنا ؟ »

ويزداد تساؤله عندما يستعرض كل دواعي الفرح في المدينة ، عندما يستعرض السينات والمسارح والأوركسترات ، وعندما يتذكر الإذاعة والتلفزيون ، وعندما يذكر المضحكون المحترفون : ويذكر معهم أجمل وأشهى النساء ، وأفخر أصفاف الويسكى ، والسيارات في الشوارع ، وأجهزة التكييف في المنازل ، وأكوام الأموال في البنوك ، ومع هذا كله ، يغزونا الحزن ، ويعشش في قلوبنا الأسى ، ويكسو وجوهنا الهم ، ونمشي كما الرجال الجوف .. ظل ولا لون .. إشارة ولا حركة .. ضحك ولا فرح .. ويبحث كاتبنا الأديب عن سبب واضح لكل أغانينا الحزينة ، وكل وجوهنا الشاحبة ، وكل قلوبنا المريضة ، وكل أرواحنا المتعبة ، وكل ما من شأنه يجعلنا نشعر بالذنب !

« هل هي المعرفة ؟ .. هل هي القوة التي وضعها العلم في أيدينا ؟ .. هل هي القبلة والذرة وزجاجة الدواء ؟ .. هل هي هموم المسئولية ؟ أم هي الدين والفن والعلم الذين اجتمعوا معاً ليصنعوا لنا هذه الحضارة الحزينة ؟ هذا هو السؤال .. وكائناً ما كانت الإجابة عليه .. فالذي يؤكد

مصطفى محمود أننا نعيش في المدن .. كل المدن .. حزاني مهمومين ! وهذا على العكس تماماً من تلك الحياة الحافلة بالرقص والفرح التي يعيشها أهل الغابة ، فإذا كان الإنسان هناك في المدينة قد انتفى ، فلا شك أنه موجود .. هنا في الغابة ؛ وقد لا نجد الله في الغابة ؛ وهو بالتأكيد غير موجود ، لأنهم استبدلوا الإله الواحد ، بأكثر من إله ، آمنوا بتعدد الآلهة ، عندهم .. جوك .. ونايجوك .. وماريالك .. ومبولي .. وجان لوكي ..

وجان لوكاك . . وكاوث . . ودينجديث . . وتومو ، آلهة متعددة تذكرنا  
بآلهة الأوبل !

وقد نكتشف عند بعض القبائل آثار عقيدة قديمة راسخة تتعلق بكائن  
أسمى . . يوصف بأنه قادر على كل شيء . . رحمته كاملة وحكمته كبرى . .  
وهم يصفونه بأن الرعد صوته . . والرياح من أنفاسه . . والعواصف علامة  
غضبه ؛ وهم يسكنونه السماء ولا يصورونه في رسومهم ، وإن كانوا يتصورونه  
في أخيلتهم على هيئة طائر عظيم ناشر الجناحين، على نحو يشبه صورة حوريس  
في الديانة المصرية القديمة .

غير أن هذا الإله الأسمى الذى يسكن السماء ، قد تمدد فى سموه حتى  
أنه بعد أن خلق البشر لم يعد يهتم بشئونهم أو يعنى بديناهم ، فهو أشبه بال محرك  
الذى يحرك ولا يتحرك ، والذى حدثنا عنه أرسطو ، لهذا يلجأ الإفريقيون  
إلى وساطة الأسلاف وإلى الاستعانة بالطواطم فضلاً عن فنون السحر !

وإذا كان هذا معناه غياب الإله ، فمعناه فى ذات الوقت حضور  
الإنسان ؛ فالغاية أسعد حالاً من المدينة لأنها وإن انتفى فيها وجود الله ،  
فقد تأكد فيها قيام الإنسان ، ومع هذا فالله الغائب فى الغاية ليس هو الله  
الميت فى المدينة ، فثمة علاقة ما تربط ما بين الاثنين ، أو على الأقل تمنح  
الإنسان كل هذا الفرح ، وكل هذه السعادة .

إننا نقول عنهم إنهم وثنيون . . كفر ، ولكن الله كما يقول مصطفى  
محمود يضى عليهم من الفرح والمسرّة ما يضيفه على أحبابه ، فإنسان الغاية  
هم بشكل أو بآخر أحباب الله .

ولكن أليس فى غياب الله نوعاً من المستحيل الذى لا يطاق ، والذى حاول  
مصطفى محمود فى بحثه الدائب عن المدينة الفاضلة أن يتجنبه بقدر المستطاع؟

هل يكفي أن نجد الإنسان في الغابة لكي نستغنى بوجوده عن وجود الله ؟ إن الله موجود بالضرورة في مكان آخر غير المدينة التي أعلنت موته ، وغير الغابة التي أستغنت عنه ، والسؤال الآن ماذا بعد المدينة وبعد الغابة ؟

الصحراء !

ترى هل يستطيع أديبنا الرحالة أن يولى وجهه شطر الصحراء ، عساه يجد من فوق جبالها وهضابها ذلك الكائن الأعلى . . الذى هو الله ؟

## ⑨ الصّحراء

ويخشى الأعرابي الموت غرقاً في الصحراء

وشمس على المعنى مطالع أفتها

فمغربها فينا ومشرقها منا

فقبر مغربي

نعم . . إن الشمس تغرب فينا الآن . .

فمتى يكون مشرقها منا ؟ . .

هذا هو السؤال الذي يحتم به مصطفى محمود رحلته في الصحراء ؛ وهي الرحلة التي حاول أن يجد فيها « فردوسه المفقود » بعد أن وجد في الغابة « فردوسه المستعاد » ، وكأنما يردد صيحة الأعرابي « جاء الوادي » عند سقوط السيل لينذر بالخطر ! ومعروف في الأصل أن كلمة « عرب » وكلمة « صحراء » مترادفتان ، وقد جاء في القرآن أن الأعراب هم العرب الرحل لا غير ،

## أى عرب الصحراء !

والصحراء كما نعرف تتميز بحرارتها الشديدة ، وبما يحدث فيها من تقلبات عنيفة ومفاجئة ، ففي الهضاب وسط الجزيرة يعقب الصيف القاسى فى حرارته ، الشتاء القارس فى برودته ، بل قد يجيء فى فصل واحد ليل ثلجى بعد نهار قانظ ، فعند شروق الشمس كما عند غروبها ، تحدث فى دقائق معدودات تقلبات جوية يبلغ من عنفها أن تتحول الصخور إلى فئات ، ومن ثم يتكون الحصى الذى تسفيه الرياح ، ويتحول إلى تلال من الرمال .

وقد تمضى شهور فى هدوء تام ، ثم تبدو بقعة فى الأفق ، وتأخذ فى الاتساع ، ولا تمضى لحظات حتى تغزو المكان كله ، وهذه هى رياح السموم التى تدمر كل شىء ، وتغرق القوافل ، وتنقل التلال من مكان إلى مكان ، وتغطى الأخوار وتغير شكل الصحراء !

ويحدث أن تمر سنوات لا مطر فيها ولا ماء ، ثم تظهر نقطة سوداء فى السماء الصافية ، وبعد قليل تتحول إلى غيوم حالكة ، وتمتد إلى الجزء الأكبر من السماء ، ثم تأخذ الأمطار الشديدة فى الانهيار .

وفى مهابط الأودية تسقط السيول فجأة ، فى موجات قوية تأتي على كل ما يقف فى طريقها ، حتى لتحمل معها الخيام المنصوبة ، وتغرق الجمال والجمالين . وأخيراً تنقلب المنخفضات القاحلة إلى مستنقعات ، ثم يقف الطوفان فجأة كما جاء فجأة ، ويجف السيل بعد أن يخفى ما كان منه من مستنقعات ، وفى عدة أيام تنمو الحشائش والنباتات نمواً سريعاً ، فى هذا الجو الرطب الذى لا يستمر طويلاً ، فنمو الخضرة فى الأراضى الشاسعة ، وتظهر فيها الأزهار والحبوب !

إلا أن شقة الشمس لا تلبث أن تعود فتنشد ، وتهب السموم من جديد ، ويجف ما كان رطباً ، وتعود الصحراء قاحلة لشهور قد تمتد إلى أعوام !

هذه هي الصحراء ، الصحراء القاسية والصحراء الحانية ، صحراء الموت و صحراء الحياة ، الصحراء التي تتصل فيها الأطراف ، أو يمتزج بعضها ببعض الآخر ، فلا تعرف التدرج ولا التوسط ، ولا التقارب بين الأضداد ، ولا الوحدة في الاختلاف، وإنما الذي تعرفه هو طرفي النقيض ، وهو ألا يكون الإنسان فاتراً . . إما حاراً أو بارداً !

وتلك هي الصحراء ، وذلك هو الفردوس . . مفقوداً أو مستعاداً ! وكانت واحة « غدامس » في الصحراء الليبية ، هي ذلك الفردوس المفقود أو تلك الجنة العجيبة التي تبلغ درجة حرارتها ٤٨ ، وتجري من تحت بيوتها الأنهار ، ولا يعرف أهلها السرقة ولا القتل ، وفيها « عين الفرس » التي تسقى الواحة كلها ، والتي كانت قد تفجرت تحت أقدام فرسه عقبة ابن نافع . ثم فيها بعد هذا كله روح « سيد البدرى » الصحابي الجليل ، الذي دخل « غدامس » مع جنود عقبة في عام ٤٢ هجرية ، وحارب الكفار، وكافح حتى نشر الإسلام في آخر زقاق من أزقة الواحة ، ثم استشهد منذ أكثر من ألف عام .

وفي الطريق . . طريق مصطفى محمود إلى ضريح السيد البدرى، كان يقول لنفسه طول الوقت : « أخيراً وجدت الرجل الذي صنع المستحيل » !

فما هو هذا « المستحيل » الذي لا يطاق ، والذي تمنناه وإن كنا نحشاه ، والذي صنعه السيد البدرى ؟

إننا إذا استبعدنا عنصر « المغامرة » في رحلة مصطفى محمود إلى الصحراء ،

ووضعنا كلتا يدينا على جوهر هذه الرحلة ، أو عنصرها الجوهري ، وجدناه في ذلك « المستحيل » البشرى الذى صنعه الصحابي الجليل ، وفي تلك البقعة من الصحراء . . غدامس . . أو النقطة الخضراء كما يسمونها ، والتي يرتكز فيها تاريخ أربعة آلاف سنة من الحضارة !

ولا يعنينا كثيراً تاريخ هذه الواحة . . متى ولدت ؟ . ولا تاريخ تلك « العين » متى تفجرت ؟ . وهل بدأت الواحة قبل العين أم بدأت بالعين ؟ وهل كان ذلك منذ أكثر أو أقل من أربعة آلاف عام ؟

لا يعنينا هذا كثيراً ، ولا يعنينا كذلك ما تعاقب على تاريخ الواحة من موجات للغزاة ، منذ أن صارت مطمعاً للأقوياء والمغامرين . . الرومان . . والوندال . . والبيزنطيون ! ومنذ أن دخلها العرب بقيادة عقبة بن نافع ليحولوها إلى الإسلام ، ومنذ أن جاءها الأتراك بعد العرب في القرن السادس عشر الميلادي ، إلى أن احتلها الطليان في سنة ١٩٢٤ حتى انتهت قصة استعمار الواحة في يناير ١٩٤٣ ، حينما أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا وتكناتها في الواحة في الحرب العالمية الثانية، ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامي !

لا يعنينا هذا كله في رحلة مصطفى محمود إلى الصحراء ، وإنما الذى يعنينا هو جوهر هذه الرحلة ، والذى يتمثل في ذلك « المستحيل » المفقود من ناحية والمنشود من ناحية أخرى ، والذى لاقاه كاتبنا الرحالة في ضمير الصحراء !

« أخيراً وجدت الرجل الذى صنع المستحيل »

تلك هى الصيحة التى أطلقها مصطفى محمود وسط صمت الصحراء ، وكأنما هى صيحة أرشميدس الشهيرة التى أطلقها من فوق سطح الماء ؛ أما « الرجل » فهو السيد البدرى الذى سبق أن أشرنا إليه ، وأما « المستحيل » الذى

صنعه فهو ذلك الأمن أو الأمان الذى استظل الواحة ، طوال عشرات السنين . . بلا سرقة ولا قتل ولا خيانة ولا عدوان . بلا أى حادثة من للحوادث التى تعكر صفو الأمن ، لمجرد أن الواحة لا يزال بها ضريح « السيد البدرى » .  
 وكأنما « الرجل حياً » استطاع أن يحارب الكفار وينشر الإسلام فى ربوع الواحة ، وكأنما « الرجل ميتاً » استطاع أن يحافظ على الأمن وينشر على الواحة أجنحة السلام : فالرجل حياً هو الإسلام ، والرجل ميتاً هو السلام .  
 ولكن كيف يمكن لرجل ميت أن يحافظ على الأمن ؟

إن الأهالى يؤمنون به إيماناً راسخاً ، ويعتقدون أنه بفضل روح السيد البدرى يمكن الكشف عن السارق ، فحينما تحدث سرقة يجتمع المشايخ فى الضريح ويقرءون سورة يس أربعين مرة ، فيظهر السارق على الباب وهو يتوسل . . استرونى من الفضيحة يرحمكم الله . . ويرد ما سرق كاملاً .

ويتساءل مصطفى محمود وعلى وجهه علامات الدهشة والاندهاش :  
 « وهل حدث هذا فعلاً ؟ » ويأتيه الرد « حدث كثيراً » وهنا يتقدم أحد جنود الشرطة ليروى أقرب حادث وقع ، حينما سقطت محفظة أحد السياح وبها ٤٠٠ جنيه . والتقطها أحد الأهالى وأخفاها عن العيون . . وما لبث المشايخ أن اجتمعوا فى الضريح ، وراحوا يقرءون سورة يس ؛ وحينما بلغوا العدد ٣٢ ظهر السارق على الباب وهو يتوسل . . « استرونى . . لا تفضحونى يرحمكم الله » وألقى لهم بالمحفظة وجميع أوراقها كاملة ، وطلب الصفح والمغفرة والأمان .

ومهما يكن من تفسير هذه الحادثة بوجه خاص ، أو تلك الظاهرة بوجه عام ، فالذى لا شك فيه أن السلام الذى نشره البدرى على ربوع الواحة ، هو بفضل كرامة السيد البدرى ، وإذا كان الإيمان بدلالته وليس بتفسيره .

أعنى بما يدل عليه ويحققه في الواقع ، فإن ما يحدث في هذه الواحة هو فعل من أفعال الإيمان !

وهو فعل قد ينكره المنهج العلمى وقد يرفضه المنطق الفلسفى ، ولكن الحدس الصوفى قادر على استيعابه وتمثله دون أن يتناقض فى ذلك لاعم العلم ولا مع الفلسفة ؛ فالنظريات العلمية الناتجة عن المشاهدة الخارجية والتجربة الحسية تصف الظواهر دون أن تتجاوزها إلى ما وراءها ، والأفكار الفلسفية المؤسسة على النظر العقلى والدليل المنطقى تفسر الظواهر دون أن يرق تفسيرها إلى مرتبة اليقين ، أما الأذواق الصوفية الصادرة عن البصيرة والإلهام فهى وحدها التى تستطيع إدراك الحقيقة إدراكاً مباشراً ، كما تستطيع مشاهدة كل ما يصدر عنها فى الكون من آيات الحق والخير والجمال .

وهذا هو سر إعجاب مصطفى محمود بصوفية الإسلام الذين ربما كانوا بما يخضعون له أنفسهم من رياضات ومجاهدات ، وبما يتعاقب على قلوبهم من مواجيد وأذواق ، وبما يفتح به عليهم بعد هذا كله من مكاشفات ومشاهدات أقدر من العلماء والفلاسفة على معرفة الحقيقة ، وهذا ما عبر عنه عباس محمود العقاد بقوله : « وإن أحق الناس بعرفان هذا لأولئك الذين نظروا إلى الكون بعين الباطن . . وقالوا فى ذلك ما لم ينقضه علم ولن ينقضه ما دام للإنسان لباب وراء الحواس والعقول » .

ونمضى مع مصطفى محمود فى رحلته بالصحراء ، ليروى لنا قصته مع « جبل قصر الغول » ؛ وهى القصة التى تكشف لنا عن وجه آخر من وجوه المستحيل ، ذلك المستحيل الذى يعبر إلى أرض الواقع الخارجى فوق جسر الإيمان ؛ مؤكداً حقيقة هامة هى أنه ليس بالحواس وحدها يعيش الإنسان ، ولا بالحواس مضافاً إليها جانب العقل ، وإنما بقدرته على استكناه

ما وراء المحسوس والمعقول ؛ وتحويله إلى طاقة إيجابية خلاقية، قادرة على معانقة المطلق وتحقيق المستحيل .

فها هو « جبل قصر الغول » . . . جبل صغير أشهب ملىء بالتسويات الصخرية ، قابع فوق بساط الصحراء بلا حدود وبلا طرقات وبلا عود أخضر أو قطرة ماء ؛ ومع ذلك فالهواء الجاف الساخن يحيطه من كل اتجاه والرياح تصفر فيه من كل زاوية، حتى تحيل الإنسان إلى ذرة تراب في عالم من التراب، يدخل من فمه وأنفه وأذنيه وعينيه وجلده ، ويلدعه بملايين النبال الساخنة !

في هذا الجبل حدثت المعركة بين جنود عقبة بن نافع وبين الكفار ؛ وفي بطن هذا الجبل حفر جنود عقبة ذلك الكهف الرهيب حتى بلغوا نقطة التقاطع مع البئر، وربطوا هناك يقطعون كل جبل يدلى به الكفار ليستقوا من الماء حتى أشرفوا على الموت عطشاً، فلم يجدوا بداً من النزول والالتحام مع جيش عقبة ، وانتهت المذبحة بانتصار العرب .

وليست الحادثة التاريخية في ذاتها بالشيء الهام ، وإنما الشيء الأكثر أهمية هو دلالة تلك الحادثة . . . فعندما يفكر الإنسان في الطريق الطويل الذي قطعه هؤلاء المحاربون من مكة إلى قلب الصحراء الليبية ، يسعون على الإبل وعلى الأقدام حفاة لا يملكون من الزاد إلا حفنة الرمل ؛ لا يملك إلا أن يتساءل : « أى قوة رهيبة ؟ » أى طاقة خلاقية أطلقتها كلمات القرآن في هؤلاء العرب الأجلاف الخارجين من غيابات الجاهلية ، حتى جعلت منهم جنود حرب ، ورسل فكر ، ومشاعل علم وحضارة !

وتتداعى الخواطر . . . خواطر مصطفى محمود عندما يقارن بين العرب في فجر إسلامهم وبينهم في غروب الإسلام ، أو بين الإنسان العربي في صباح

خلقه الأول وبينه في فجر مسائه الأخير ، لينتهى إلى حقيقة مؤثلة مؤداها أنه اليوم يخسر ولا يكسب ، يخسر ذلك الشيء الذي كان يتمتع به أولئك المحاربين العظام الذين انطلقوا كالمردة ، وهبوا كالأعاصير ، وغيروا وجه الدنيا وحولوا مجرى التاريخ !

أجل : « نور القلب قبل نور الكهرباء هو ما يجب أن نبحث عنه » .  
وما أخرج إنساننا العربي المعاصر إلى : « نبع روح . . فنبع بترول لا يكفى » .

تلك هي الخلاصة التي يخلص إليها مصطفى محمود وهو يقارن إنساننا العربي . . في أمسه البعيد ويومه الحاضر ؛ في أمسه البعيد خرج النور من أفقر أمة على وجه الأرض ، لا تملك سوى البعير والخيام ، خرج النور ليقتحم على الفرس والروم ديارهم وكل ذخيرته كلمة حق ، كلمة عدل ، كلمة سلام .

أما في يومه الحاضر ، فعنده الحديد والصلب والكهرباء ، وعنده البترول والمال والثروة ، ومع ذلك نراه يغوص كل يوم في الحقد والكراهية ، في الضعف والفتور ، في كل ما يبعده عن جذوره الأولى وماضيه العظيم ! لقد أضياء لنا العلم المادى بيوتنا ولكنه لم يضيئ لنا قلوبنا ، قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الغواصات والصواريخ والقنابل الذرية ، ولكنه لم يقدم لنا الكلمة الجديدة ، الكلمة التي كانت في البدء ، والتي ينبغي أن تكون في الختام .

ويركع مصطفى محمود يلثم رمال الصحراء ، التي روتها يوماً دماء الشهداء ، وفي طريق عودته كانت أكثر من عشرين مثذنة تؤذن باسم الله ! ويقوده الأذان إلى الحديث عن « كلمة الله في الصحراء » ! فكلمة

الله في الصحراء هي التي فجرت كل تلك الهبات والثورات التحررية التي غيرت وجه الأمة العربية ، صحيح أن الصحراء كانت دائماً مخبأً عظيماً للحرية ، ووكراً للثوار والمفكرين ، ولكن الصحيح أيضاً أن كلمة الله كان لها أثرها وتأثيرها في قلوب أهل الصحراء . لذلك لم تكن مصادفة بل كان مما يتفق وطبائع الأشياء أن اكتست جميع هذه الحركات التحررية بكساء الدين ، وتدفرت في حضن الكلمة . . . الله !

وليس أدل على ذلك كله من ظهور السنوسية في الشمال الإفريقي ، وظهور المهديّة في السودان وهما أكبر حركتين تحرريتين شهدتهما الصحراء . ويتكلم أدينا الرحالة عن الدعوة السنوسية ، وكيف كان ابن السنوسي ينتقل لينشرها بين البدو والبربر والطوارق وقبائل التبو وأولاد سليمان والمجابرة ، حتى صارت بحيرة تشاد مركزاً إسلامياً هاماً في وسط إفريقيا ، وحتى بلغ عدد أتباع السنوسية في عام ١٨٧٣ حوالي ثلاثة ملايين ، وأصبح السنوسي باعتراف المستشرقين أنفسهم المؤسس الحقيقي لأكبر أخوة دينية في إفريقيا . وما كان يمكن للسنوسي أن يحقق هذا كله ، لولا كلمة الله التي أطلقها في الصحراء ، تلك الكلمة التي وصفها بأنها « تنبه الغافل ، وتعلم الجاهل ، وترشد الضال » . أما وسائله في نشر الدعوة فكانت هي التقرب إلى الله بالعلم والقرآن والعمل الصالح ، واتباع الزهد وقراءة التساييح والذكر حتى يصل بالمريد إلى درجة النورانية والوجد .

ولكن هل معنى هذا أنه كان صوفياً منقطعاً للزهد والعبادة ؟ كلا بطبيعة الحال ، وإنما كان مبشراً له رؤية اجتماعية ، وفي ذهنه نظام مثالي عاش يخطط من أجله ؛ ذلك لأن التصوف الحقيقي في جوهره « فعل » وليس مجرد « انفعال » ، والمتصوفة الحقيقيون كانوا دائماً رجال عمل كما تدلنا على



حتى تبتلع الأمة العربية في داخل هذا الشكل التنظيمي الجديد من الاشتراكية الإسلامية !

ولكن الاستعمار الإيطالي الزاحف من الشمال ، والاستعمار الفرنسي الزاحف من الجنوب ، لم يمهل هذه الحركة حتى تؤتي ثمارها ، وما لبث أن أطبق عليها بكلاية الحديد والنار ، وفي لحظة وجدت السنوسية نفسها في موقف الدفاع .

وانطلق الرصاص من عشرات الزوايا في أعماق الصحراء ، واستمرت مقاومة السنوسية للفرنسيين في الجنوب عشر سنوات ، كما استمرت مقاومتهم للإيطاليين في الشمال عشرين سنة ، ولكن الصلب والبارود والصناعة الغربية والعلم الغربي استطاع أن يهزم بدو الصحراء .

وفي كل صدام بين الشرق والغرب كانت الصناعة الغربية هي التي تحسم المعركة ، إلى أن تعود كلمة الله لتنمو في ضمير الإنسان العربي ، وتتكاثر في خلاياه ، فيطلقها في جوف الصحراء لتقوم قيامته من جديد ؛ فإذا غربت فينا الشمس ، فلا بد أن يكون مشرقها منا ، وكأنما الإنسان العربي يعيش لا على سنة الحياة ، ولا وفقاً لناموس الكون ، ولكن لأنه على موعد مع الله !

ألم يكن ذلك هو المعنى الذي قصده « عبد الله في أرض الله » بيته الشعري الجميل والجليل معاً ، ذلك الرجل المغربي المنقطع للعبادة ، الذي لم يشأ أن يذكر اسمه ولا مكانه لأديبنا الرحالة ، وإنما اكتفى بعبارة : « عبدالله في أرض الله » ؟ !

وهو لا يلبس من الدنيا إلا برداً من الصوف ، ولا يجلس على الأرض إلا بغير فراش ، ولا يتوسد من الأشياء إلا الحجر ، ولا يأكل إلا بضع تمرات

فإذا ارتحل فأعشاب الطريق هي زاده من الطعام .

ويسأله مصطفى محمود : « كيف تجد الكفاية في هذه الأعشاب ؟ »  
 فيرد عليه الرجل الصالح : « كف يدك عن الأذى ، وطهر لسانك عن  
 الغيبة ، وافتح قلبك للحب ، يجعل لك الله في كل عود أخضر من هذه  
 العيدان غذاءً كاملاً » .

فيسأله أن يعظه ، فينظر إليه في حياء ويغمغم :

« قال الله للمسيح : « يا عيسى عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ

الناس ، وإلا فاستح مني »

« وأنا لم أتعظ بعد لأعظك » .

فيقول له مصطفى محمود وهو لا يزال يحاوره : « إذن تمنحني بعض

كلمات تكون زادي في الطريق » .

فيقول له الرجل الصالح وهو يرسل نظراته إلى الأفق البعيد : « اصرف

كل اهتمامك للعلم ، فإن الله لا يعبد إلا بالعلم » .

وكأنما بكلمة « العلم » لخص الرجل قصة الصراع بين الشرق والغرب ،

ولماذا ينتصر العلم الغربي في كل معركة ، ولماذا تغرب فينا الشمس ، التي لن

تشرق منا ثانية إلا بالعلم ! .

فالعلم الأجوف وحده لا يكفي ، وإنما العلم لا بد أن يؤدي إلى عمل ،

حتى يكون بحق علماً عاملاً ؛ وهذا ما عبر عنه الإمام الغزالي بقوله : « ولا أحب

الكلام إلا فيما تحته عمل » . وهذا معناه أن العلم لا يكتسب شرعيته إلا إذا

أدى إلى سلوك وفعل ، إلى تحقيق وإنجاز ، إلى تحرير وتعمير !

وهذا هو سر حسرة الرجل الصالح على أهل هذا الزمان ، الذين اعترفوا

بالله ولكنهم تركوا أمره ، وقرءوا القرآن ولكنهم لم يعملوا به ، وقالوا نحب

الرسول ولكنهم لم يتبعوا سنته ، وقالوا نحب الجنة ولكنهم تركوا طريقها ، وقالوا نكره النار ولكنهم تسابقوا إليها ، وبنوا القصور ولكنهم نسوا القبور . وراح الرجل يقارن بين أهل زمانه وأهل زماننا ، فلخص الموقف كله في سؤال واحد :

« لقد كنا في زماننا نحلم بالحج إلى مكة والقدس والموت بهما ، وأتم جاءتكم فرصة الشهادة إلى بابكم بالقدس فماذا فعلتم ؟ » .  
ولم يجد مصطفى محمود كلمة يجب بها ، أما الرجل الصالح فراح ييكي ويغمغم :

شمس علي المعنى مطالع أبقها

فيمغربها فينيا ومشرقها منيا

نعم . . إن الشمس تغرب فينا الآن ، فمتى يكون مشرقها منا ؟  
متى تعود الشمس لتشرق منا ؟

متى ينتهي الغروب والليل الطويل ، وينشق منا الفجر من جديد ؟  
هذا هو السؤال الذي تردد في ضمير أدينا الرحالة ، وذلك هو الجواب الذي تغمغم به الفقير العجوز المجهول الاسم والمكان : عبد الله في أرض الله !

والخلاصة التي يخلص إليها مصطفى محمود بعد عودته من رحلته إلى الصحراء ، هي أن الله موجود في كل مكان ، ولكنه أكثر وجوداً في الصحراء ، وإذا كان وجوده في كل مكان حقيقة ، فإن وجوده في الصحراء معرفة !  
إذن كيف الطريق إلى معرفة الله ؟

إنه عند مصطفى محمود . . الطريق إلى الكعبة . . فالطريق إلى الكعبة

هو الطريق إلى الله !